البيئة عند الإنسان بين الطرحين المادي والروحي: مقاربة سوسيو-دينية

أ/ فيصل ذيب
قسم علم الاجتماع- جامعة قسنطينة 2

الملخص:

لقد اهتم الإنسان بموضوع البيئة منذ فجر التاريخ أين كانت العلاقة عبارة عن صراع دائم بين الطرفين (الإنسان- الطبيعة)، ومنذ ظهر الإنسان على سطح الأرض وهو يحاول جاهدا أن يستغل موارد بيئته بطريقة أو بأخرى لإشباع حاجاته المتنامية والمتزايدة، فهو إذن في صراع دائم مع بيئته، وقد اختلفت هذه العلاقة على المدى التاريخي لحياة الإنسان، واستحوذت على اهتمام الكثير من العلماء باختلاف اختصاصاتهم ومشاربهم العلمية، خاصة منهم الفلاسفة وعلماء البيولوجيا والأحياء، وعلماء الجغرافيا الاجتماعية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وقد جاءت الطروحات الوضعية في حماية البيئة والمحافظة عليها ، والذي يكمن أساسا في الاهتمام بالجانب المادي للبيئة دون الاهتمام بالجانب الروحي العقدي لها وهو الأهم، أما الطرح الإسلامي فقد عالج هذه القضية من خلال البعدين معا، مما أضفى على ذلك صفة المثالية والإحكام والإتقان والدقة، وكيف لا والفاعل هو الله سبحانه وتعالى خالق هذه البيئة ومصورها وهو أعلم بقوانينها ونواميسها ونظمها.

الكلمات المفتاحية : البيئة، الجانب المادي للبيئة ، الجانب العقدي في البيئة ، الجانب الروحي في البيئة.

Abstract :

Human being has always shown an interesrt to the environment question, there was always a struggle between man and nature.

From the beginnig of his existance he has always tried to use the envirment product for his own interest , to satisfy his personal needs , which created this struggle.

These relationships where different during all the history of man kind and it had been the main point for different scientists especially philosophers, biologitst, geographers , psychologists and social scientist.

there have been different suggestions towards environment protection that focused on the material side rather than the spiritual and religious sides which are much more important .

Where as the Islamic point of view has dealt with both sides which has given for that subject more perfection and more preciseness, why not and the only dooer is GOD the creator of all this environment and the only leader of all its lows.

Key words : Environment, the material side of the environment, the religious side of environment, spiritual side of environment.

مقدمة:

إن قضية البيئة ومشكلاتها التي تؤرق الإنسان منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، خاصة إذا نظرنا إلى التدهور الذي وصلت إليه اليوم، جرّاء الاستغلال اللاعقلاني لمواردها من طرف الإنسان، جعلته يخوض في موضوعاتها متنقلا من محاولة تفسير العلاقة بينه وبينها، إلى محاولة وضع التدابير اللازمة لحمايتها والمحافظة عليها، والملاحظ في ما ذكرنا سالفا، أن هناك حلقة مفقودة في طبيعة الطُّرق التي عولجت بها مواضيع البيئة، وهي الإرث التصوري الثقافي لها في ذهنية الإنسان

وقيمتها الروحية لديه، فكل المعالجات في الإرث العلمي القديم أو الجديد، هي عبارة عن معالجات ذات نظرة مادية بحتة للبيئة، كونها شيئا ماديا ملموسا لا غير، لا علاقة لها بالروح والعقيدة والجمال والمعنى، وهذا ما نراه في الطرح الوضعي الإنساني.

لقد جاء الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ونيف مبرهنا بما يحتويه من إعجاز وقوة طرح وحقائق ملموسة ومنطقية وعلمية، على وجود الله تبارك وتعالى وعلى أنه هو خالق هذه البيئة وما فيها وما قبلها وما بعدها مما يعلمه الإنسان ومما لا يعلمه، فللبيئة أبعاد روحية عقدية إلى جانب بعدها المادي، والدليل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم من كلام الله تعالى عن البيئة والتي جاءت فيه بلفظ « الأرض »، و هناك أزيد من سبعمائة آية تتحدث عن هذا الموضوع، وما فيه من قِيَمٍ مادية وروحية للبيئة، وعن منافعها للإنسان، وأسباب ودوافع وأهداف خلقها، وكيفية التعامل معها، والتنبؤ بما سيطالها من طرف بني البشر من فساد واستغلال لاعقلاني، والتهديد والوعيد لكل من تكون له يد في هذا الفساد في نظمها ونواميسها، التي ضُبِطت بحكمة مطلقة من طرف الله سبحانه وتعالى، وقد صدّق الطرح القرآني، السنة النبوية الشريفة من خلال أحاديث الرسول– صلى الله عليه وسلم– الذي أعطانا الكثير من التوجيهات في كيفية التعامل مع البيئة، وبيَّن لنا قيمتها المادية والروحية العقدية.

1– الحقيقة الروحية للبيئة:

1–1– البعد العقدي في البيئة:

البيئة باعتبارها جزءًا من الكون الأكبر ليست قائمة بذاتها، لا في وجودها ابتداءً، ولا في مسيرتها الوجودية بعد ذلك، إنما هي أثر معلول لوجود آخر يختلف عنها اختلافا كليا في كل شيء، وهو وجود غيبي أنشأها أول مرة، ثم هو يرعاها ويدبر أمرها طيلة وجودها بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر**﴾ (يونس:3).

وإذا كان الوجود البيئي وجودا ظاهرا محسوسا، والوجود الغيبي خفيا غير محسوس، إلا أن هذا الوجود الغيبي له ظهور بيّن في البيئة المحسوسة نفسها، بل هو في كل عنصر من عناصرها وفي كل هيئة من هيئاتها، ولكنه ظهور غير محسوس وإنما هو متضمن فيها بما هي أثر له في الخلق والتدبير، بحيث يتجلى ذلك الأثر فيها تجليا تصبح به شهادة على ذلك الوجود الغيبي، تصبح به هي ذاتها شهادة قائمة على ذلك الوجود ناطقة به.

ولما تكون البيئة شاهدة على الوجود الغيبي في كل مظاهرها، فان الناظر فيها ابتغاء معرفة حقيقتها سوف يقف في كل صغيرة وكبيرة منها على تلك الشهادة بالوجود الغيبي، وحينئذ فإنه لا مناص من أن يأخذ بعين الاعتبار في تقدير تلك الحقيقة عنصر الشهادة هذا لينتهي إلى أن هذه البيئة ليست حقيقتها منحصرة في ذاتها المادية، وإنما هي شاملة أيضا لمعنى الشهادة فيها على وجود آخر غيبي، فيكون إذن في حقيقة البيئة بعدان أساسيان: بعد مادي ظاهر يدرك بالحواس، وبعد روحي يتعلق بالمعتقد الغيبي ويدرك بقوى النفس، وهما بعدان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في تصور تلك الحقيقة، حتى إذا رأى الرائي عنصرا من عناصر البيئة أو التعامل معه بضرب من السلوك لا يراه أو يتعامل معه إلا على أساس أنه كائن ذو بعدين مادي محسوس وروحي عقدي.

وقد جاء القرآن الكريم والحديث الشريف يبدآن القول ويعيدان في هذا البعد العقدي للبيئة، حتى إنه يكاد لا يَرِد فيهما ذكر لها في جملتها أو في تفاصيلها إلا كان المعنى العقدي حاضرا فيه بوجه أو بآخر من وجوه الحضور، مما يبين أن العنصر أو الجانب العقدي في حقيقة البيئة كما تقررها التعاليم الإسلامية، هو جانب أساسي فيها مثل الجانب المادي، وليس مجرد معنى عارض من معانيها، ونذكر في ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ **إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون**﴾، (الجاثية: 3–5)، " فهذه المشاهد البيئية إنما عرضت في كمّها وكيفها عرضا يجمع في تقرير حقيقتها بين ظاهرها المادي وبين بعدها العقدي المتمثل في شهادتها على وجود الله تعالى و وحدانيته، ويكاد يَطَّرِدُ هذا الأمر في كل ما ذكر من مشاهد البيئة في القرآن الكريم والحديث الشريف، وعلى كثرة المقامات في ذلك وتنوعها ترجع معاني

الشهادة العقدية للبيئة إلى معنيين أساسيين: الشهادة بوجود الله وصفاته، والشهادة بوجود الحياة الأخرى". (النجار، 1999، ص ص.86-87)

1-2- البعد الجمالي في البيئة:

إن حقيقة البيئة لا تنحصر فقط في بعدها المادي المحسوس، ولا في بعدها العقدي متمثلا فيما يتضمن من الدلالة على الغيب، وإنما تتضمن أيضا بعدا جماليا كعنصر من عناصر حقيقتها الروحية، فقد حرص القرآن الكريم حرصا شديدا في عرضه لحقيقة البيئة بمختلف مكوناتها على أن يبرز العنصر الجمالي فيها، قاصدا إظهار ما كُوِّنت عليه المادة البيئية في كمها وكيفها من معنى الجمال، بحيث تكون صورتها الحاصلة في الذهن متضمنة لذلك المعنى في واقعها الموضوعي، كما هي متضمنة للمعنى المادي من ذرات وأشكال وأثقال، وكما هي متضمنة أيضا للمعنى الغيبي مثلما بيناه آنفا، فإذا البيئة في هذا التصوير القرآني حقيقة مركبة من جملة عناصر يحتل الجمال مركزا أساسا فيها.

و يلفت الانتباه في التقرير القرآني لعنصر الجمال في البيئة ثلاثة أمور أساسية، كان القرآن الكريم يحرص على إبرازها قرينة للصورة الجمالية البيئية، فيما يوحي بأن هذه الأمور سيكون لها الأثر البالغ في تعامل الإنسان مع البيئة تعاملا سلوكيا، وهو ما يبدو أنه كان الغرض القرآني الأساسي في إبراز هذا المعنى الجمالي في البيئة والتوجيه إليه، وهذه الأمور الثلاثة الملازمة لجمال البيئة في التصوير القرآني هي: الواقعية، المتعة الروحية، العبرة العقدية، قال تعالى: ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه**﴾ (فاطر: 27-28)، ﴿ **وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة**﴾ (النمل: 60)، ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيّناها للناظرين**﴾ (الحجر: 30).

1-3- أثر البعد الروحي في السلوك البيئي:

تَقَدَّم القول سابقا إن التعامل السلوكي مع موضوع ما من المواضيع يكون محكوما إلى حد كبير بالتصور النظري لذلك الموضوع، وهذا الأمر يصدق من بين ما يصدق على التعامل السلوكي مع البيئة، فالتصور النظري لحقيقة البيئة في أبعادها المختلفة هو الموجه الأكبر للتصور السلوكي إزاءها، فكيفما يكون ذلك التصور للبيئة يكون السلوك العملي فيها، إما بالتلطف معها على سبيل المثال والحفاظ عليها إذا كانت صورتها في الذهن تحمل معنى القربى، وإما بالغلظة معها والعبث فيها إذا كانت تلك الصورة تحمل معنى المغالبة والعداء.

وأي شيء من الأشياء التي يتصورها الإنسان حينما يكون تصوره لحقيقتها يتضمن جانبا روحيا، فإن سلوكه العملي إزاءه يكون مُوجَّها توجيها خاصا يختلف اختلافا كبيرا عن السلوك الناشئ عن تصور خالٍ من ذلك العنصر الروحي، وهو ما يبدو جليا على سبيل المثال في تلك المظاهر العملية من الاحترام والتكريم التي تعامل بها الأماكن التي تحمل ذكريات تاريخية أو دينية، والأشياء التي ترمز إلى معانٍ من الصداقة والمحبة، فإنها لو لم تكن سوى أماكن وأشياء عادية خالية من تلك الأبعاد الروحية من الذكرى والمحبة ما كانت تعامل سلوكيا إلا كما تعامل كل الأماكن والأشياء العادية المتمخضة للبعد المادي الصرف.

و بناءً على ذلك فإنه حينما تكون حقيقة البيئة تتضمن معنى روحيا وراء معناها المادي على النحو الذي بيناه آنفا، فإنها لمّا تصبح تصورا في الأذهان على سبيل الالتزام الديني أو المذهبي، سيكون لها الأثر البالغ في توجيه السلوك العملي إزاءها بفعل ذلك الجانب الروحي، إذ سيكون ذلك السلوك مبينا على اعتبارات تتجاوز الاعتبارات المادية القائمة على مجرد الانتفاع الحسي بمرافق البيئة لإشباع الشهوات والغرائز الطبيعية إلى اعتبارات أخرى تقوم على التواصل بين الإنسان والبيئة، فيه فسحة للانتفاع الروحي بما يقتضيه ذلك من تعامل يتصف باللين واللطف والمودة والقربى وغيرها من المعاني التي يقتضيها التواصل الروحي ولا يكون فيها للتواصل المادي الصرف مكان.

و البعد الروحي لحقيقة البيئة كما بيناه هو عنصر من عناصر التصور الإسلامي للبيئة، متمثلا في الدلالة العقدية لمشاهد البيئة وفي معنى الجمال المتضمنة إياه سيكون له الأثر البالغ في مجمل السلوك البيئي لمن يحمله تصورا دينيا على نحو ما وضحناه، وهو أمر يمكن استنتاجه منطقيا من الملازمة بين الصورة النظرية للتصور العقدي في هذا الخصوص وبين مقتضياتها العملية في السلوك، وذلك بالإضافة إلى تبيان مصداقيته من شهادة التاريخ في تجربة الحضارة الإسلامية الناشئة بعامل التصور العقدي الإسلامي الشامل الذي يعد جزءًا منه التصور البيئي ببعده الروحي، كما يمكن أيضا تأكيده استئناسا بالمقارنة بآثار سلوكية بيئية ناشئة من تصورات مخالفة في خصوص العنصر الروحي بعدا من أبعاد حقيقة البيئة.

"و إذا كانت هذه الآثار السلوكية البيئية التي يقتضيها التصور الروحي للبيئة آثارا متعددة المظاهر، فإنه لعل من أهم تلك المظاهر فيها يعود بالسبب المباشر أو غير المباشر إلى البعد العقدي والبعد الجمالي من حقيقة البيئة ما يتمثل في آثار أساسية ثلاثة تلتقي في معنى عام من السلوك الانتفاعي بالبيئة، ولكنه انتفاع ذو طبيعة روحية يخالف الانتفاع ذو الطبيعة المادية في أشكال التصرف وفي آثاره، وهذه المظاهر الثلاثة من الانتفاع هي: عبرة عقدية مما في حقيقة البيئة من البعد العقدي، ورشد معرفي بما في هذا البعد من بعد جمالي، ومتاع روحي". (النجار، 1999، ص ص. 109-110).

2- الحقيقة المادية للبيئة:

2-1- واقعية المادة البيئية:

قد يظهر في بادئ الأمر أن تناول قضية المادة البيئية بين الوجود الواقعي والوجود الذهني هو أمر غير ذي موضوع، إذ شهادة الحس المباشر تحسم الأمر في إثبات وجود واقعي على وجه اليقين كما تشهد به الحواس، إلا أن الواقع الفلسفي الثقافي للمذاهب والأديان يجري على خلاف ذلك، فقد كانت هذه القضية محل بحث، كما كانت محل اختلاف بين أقوال يثبت بعضها الوجود الواقعي للمادة البيئية، ولا يثبت لها بعض آخر إلا وجودا ذهنيا، وذلك على تدرج بين الطرفين تقترب فيه الأقوال من أحدهما بقدر ما تبتعد عن الآخر.

و التصور الإسلامي يقوم في خصوص هذا الأمر على إثبات وجود واقعي كامل للمادة البيئية كما تشهد بها الحواس، دون أن يكون أي شيء منها مجرد خيال ذهني أو مجرد صدى لخواطر النفس كما هو الأمر في بعض الثقافات الأخرى، وعلى أساس هذا التصور الواقعي تبنى المعرفة عموما والمعرفة البيئية خصوصا، وعلى أساسه أيضا يوجه السلوك في التعامل الواقعي مع البيئة المادية، وقد أصبح هذا المنحى في التصور الثقافي الإسلامي أمرا ثابتا غير خاضع للجدل كما سجل ذلك الإمام " نجم الدين عمر النسفي" في عبارته الشهيرة التي أصبحت تعد خلاصة للثقافة الإسلامية في هذا الشأن، تمييزا لها من غيرها من الثقافات، وردا على المخالف من الفلسفات إذ قال ردا على التصورات المخالفة: "حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق، خلافا للسفسطائية ". (النسفي، 1335 هـ، ص.20)

" و هذا التصور الإسلامي الواقعي لمادة البيئة إنما هو مأخوذ من البيان القرآني لحقيقة العالم المادي عموما وحقيقة البيئة التي يعيش فيها الإنسان خصوصا، فهذا البيان لئن لم يكن بيانا فلسفيا يبرهن على واقعية الوجود المادي على سبيل التنظير شأن المذاهب الفلسفية، إذ ذلك لا تقتضيه الطبيعة الإرشادية للقرآن الكريم، بما هو كتاب هداية لا كتاب برهان فلسفي، إلا أن مجمل الهدي القرآني في تصويره لحقيقة الوجود المادي للبيئة يتأكد منه على وجه القطع أن ذلك الوجود في المقصد القرآني هو وجود واقعي صرف، سواء في بعده الكمي المتمثل في ذات المادة أو في بعده الكيفي المتمثل في أوضاعها وعلاقاتها".(النجار، 1999، ص ص. 125-126)

2-2- القيمة المادية للبيئة:

إن التصور الإنساني للبيئة فيما تتصف به من السمو والرفعة أو الدونية والخسَّة، ومن الخيرية أو الشر يكون له دون شك الأثر الكبير في التعامل السلوكي معها سلبا وإيجابا، ولذلك فإنه يكون من المهم أخذ هذا العنصر بعين الاعتبار في تحليل

المشكلة البيئية والبحث عن أسبابها وطرق علاجها، ويكون بالتالي من المهم بيان هذه القضية في التصور الإسلامي للبيئة مقارنة بما في التصور الثقافي الغربي المسؤول عن الأزمة الراهنة للبيئة.

" إن المتأمل في نصوص القرآن والحديث، وكذلك المتأمل في التراث الذي أنتجته الحضارة الإسلامية، يتبين أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان تتصف من بين ما تتصف برفعة القيمة وعلو الشأن سواء في ذات مادتها أو في تراتيبها وأنظمتها، وذلك مهما يكن من أن الإنسان نفسه أرفع منها قيمة وأعلى شأنا، باعتبار أنها بجميع مكوناتها إنما وجدت من أجله في سبيل تحقيق مهمة وجوده، ومجمل العناصر المكونة لهذه الصورة التي تتصف فيها البيئة برفعة المقام تعود إلى معنيين أساسيين هما: الخيرة الذاتية للبيئة، وكفاية البيئة في تحقيق سعادة الإنسان". (النجار، 1999، ص. 135)

3-3- أثر الحقيقة المادية في السلوك البيئي:

كما تبين آنفا أن للتصور الروحي للبيئة أثر بالغ الأهمية في التصرف السلوكي إزاءها من وجهي السلب والإيجاب، فإنه يتبين أيضا أن للتصور المادي لحقيقتها أثرا مشابها في ذلك التصرف من الوجهين بحسب ما يكون عليه ذلك التصور، إذ التصرف البيئي كما أسلفنا يتحدد بقدر كبير بمجمل الحاصل في الذهن من الصورة الثقافية للبيئة بعنصريها الروحي والمادي.

و لما كان التصور الإسلامي لمادة البيئة قائما بيّنًا على أن هذه المادة لها وجود واقعي حقيقي، سواء باعتبارها كمّا عامّا، أو باعتبارها أفرادا وأنواعا، أو باعتبارها كيفيات من العلاقات والأنظمة، فإن التعامل معها سيكون تعاملا مع وجود واقعي كما يبدو عليه في تفاصيله وجزئياته لا مع شيء موهوم أو مع شيء موجود كليا أو جزئيا في صورة العقل فحسب كما هو الأمر في العديد من الثقافات الأخرى.

وهذا التعامل مع البيئة باعتبارها وجودا واقعيا يثمر أول ما يثمر اليقين بإمكان المعرفة لحقيقتها المادية في مادة تكوينها وفي سننها وقوانينها التي تجري عليها، وبذلك ينتفي الشك في إمكان هذه المعرفة والريب في البلوغ إليها على وجه اليقين، وقد قامت الثقافة الإسلامية بناءًا على هذا التصور على منزع وثوقي يقيني بمعرفة حقيقة الطبيعة في حين كان الشك منزعا فلسفيا قويا في الثقافة الغربية نبتت جذوره في الفلسفة اليونانية، وامتدت إلى الفلسفة الحديثة كما يتبين في الشك الديكارتي الذي أثر في مجمل الفلسفة الحديثة حتى انتهى الأمر إلى أن يفترض " ألبير كامو" ضمنيا شأن جميع أسلافه منذ " بيكون" و" غاليليو": " أن الحواس والعقل يتأثران بطريقة التأثير نفسها في المادة، ويلزم من ذلك بالضرورة أننا لا نستطيع أن نعرف إلا إدراكاتنا لا طبيعة الأشياء بذاتها لأن جميع الأفكار مصوغة على طريقة البشر... إن الفلسفة المعاصرة تتصف بيأس فكري كلي، هو التخلي عن أمل في معرفة العالم". (أقروس وستانسيو، 1989، ص.106)

وفي حين يفضي الوثوق بإمكان المعرفة للبيئة الطبيعية باعتبارها واقعا حقيقيا إلى علاقة تواؤم وتواصل بين العقل المدرك وبين الطبيعة التي يمكن إدراكها، وبالتالي إلى علاقة تواصل وانسجام بين الإنسان والبيئة، كما كان ذلك أثرا بيّنا في الحضارة الإسلامية، فإنه على العكس من ذلك يفضي الريب في إمكان معرفة حقيقة الطبيعة والشك في إمكان الوصول إليها إلى ضرب من الانفصال بين العقل والعالم لِمَا يرسخ ذلك الشك من تناقض بينهما، وهو ما انتهى إلى انفصال بين الإنسان والبيئة ينتج منه شعور بالغربة إزاءها، ثم يتخذ ذلك مظهر الصراع بين الطرفين مع ما ينتجه ذلك الصراع من آثار مدمرة في البيئة.

وقد كان هذا المعنى ملحظا ذكيا لــ "آل غور" حينما قال معقبا على الأثر البيئي لفلسفة ديكارت: " إن النهج الديكارتي إزاء قصة الإنسان يسمح لنا بالاعتقاد بأننا منفصلون عن كوكب الأرض، مخولون بأن ننظر إليها على أنها مجرد تجمع من الموارد الطبيعية غير الحية التي يمكننا استغلالها بالطريقة التي تروقنا، وقد أفضى بنا المفهوم المغلوط الأساسي إلى أزمتنا الراهنة ". (آل غور، 1994، ص.221)، وحينما قال أيضا معقبا على ذات الموضوع: " منذ أعاد ديكارت دعائم الفكرة الأفلاطونية التي تفصل بين العقل والعالم، وأطلق الشرارة الأولى للثورة العلمية، فإن الحضارة الإنسانية أخذت تختبر نوعا من مبدأ "هايزنبرق" – وفحواه أن عملية ملاحظة الطبيعية في حد ذاتها يمكن أن تغير من طبيعة هذه الظواهر، وذلك ما يندرج في ضرب من التصورية التي ترى العقل أصل الوجود الطبيعي – ولكن على نطاق واسع جدا، إذ أن لجوء الشخص إلى عزل

نفسه فكريا عن العالم لكي يتمكن من الملاحظة يؤدي في حد ذاته إلى تغيير العالم الذي تجري ملاحظته، لأنه ببساطة لم يعد الارتباط بينه وبين الشخص القائم بالملاحظة كما كان في السابق " (النجار، 1999، ص ص. 143-144)، إنها إذن فلسفة ديكارت الشكيَّة وتداعياتها فيما بعدها هي التي أحدثت الانفصال بين العقل والطبيعة، وكانت بالتالي من أسباب التصرف الحضاري المفضي إلى الأزمة الطبيعية.

وعلى نفس الشاكلة فإن التعامل مع المادة البيئية حينما يكون على أساس تصور فيه متصفة برفعة القيمة وعلو الشأن خيرية في أصل وجودها وفي تفاصيل أفرادها وأنظمتها، وكفاية غير محدودة لإعادة الحياة، وغائية في سيرورتها ذات أنساق موزونة، يكون تعاملا يتوخى فيها الرفق في الاستثمار والمحافظة على كينونتها كما هي وعلى غائيتها ونظامها، والعمل على تنمية مواردها وتوليد طاقاتها الكامنة بما يضمن استمراريتها في العطاء، فحينما يتصور الإنسان أن في شيء ما من الأشياء خيرا دائما له، وحينما يكون ذلك الخير مرتبطا بنظام وغائية، فإن ذلك من شأنه منطقيا أن يجعل التصرف الإنساني إزاءه محافظا رفيقا، وذلك كان شأن الحضارة الإسلامية في سلوكها البيئي.

الخاتمة:

ان الطرح الإسلامي للبيئة الذي عالج القضية بوجهيها، من خلال تِبْيَانه لحقيقة الوجود البيئي، والقيمة المعتبرة لهذا الوجود، ببعديه الروحي العقدي والمادي معا، فقبل أن تكون البيئة وجودا ماديا ملموسا فهي أولا وجود روحي وعقدي وثقافي جمالي، فوجودها له دلالة عقدية تكمن بدرجة أولى في وجود الله سبحانه وتعالى الذي خلقها وأحكم قوانينها ونظمها، مما يجعلها تضفي قيمة عقدية إيمانية تتمثل في التوحيد، ونعلم ونعتقد بحقيقة لا مناص منها أن الإنسان هو عبارة عن وجود مادي وروحي فإذا غذى روحه سما بإنسانيته إلى العلا، وهي الدرجات الإيمانية العالية فيترفَّع عن كل ما من شأنه أن يُخْبِتَ إنسانيته ويُذلها، فإذا فَقِهَ وفهم الإنسان حقيقة البيئة الروحية العقدية، فسيعلي من قيمتها ويحافظ عليها ويصونها، ففيها دلائل جد قوية ومقنعة على وجود الله تعالى وتوحيده، والإيمان باليوم الآخر انطلاقا من الاستخلاف في الأرض فإمّا إفساد وتفريط والجزاء جهنم، أو إصلاح وإحسان فيكون الثواب الجنة، ومن هنا يفقه الإنسان سبب استخلافه في الأرض، فيكون إيمانه باليوم الآخر يقينا، ناهيك عن القيمة الجمالية للبيئة، والتي تعد نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، فإذا وضعت أسس وبرامج إصلاحية ووقائية للبيئة من هذا البعد الروحي، إلى جانب البعد المادي فلا محالة ستكون هناك نتائج جد ممتازة، ولهذا فلا بد من ترسيخ ثقافة بيئية إسلامية، من خلال كل مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وخاصة منها الإسلامية، وعلى رأسها المسجد، الذي لا بد وأن يقوم بدوره الكامل في هذا المجال خاصة وأنه أول مجسّد للدين الإسلامي ولعقيدة الفرد المسلم، وكذلك وضع برامج التربية البيئية خاصة على مستوى المؤسسات التربوية والتعليمية.

قائمة المراجع:

1. آل غور: ترجمة: عواطف عبد العزيز، الأرض في الميزان، طبعة الأهرام، القاهرة، 1995.
2. روبرت أقروس وجورج ستانسيو: ترجمة: كامل خلالي: العلم في منظوره الجديد، دار المعرفة، الكويت، 1989.
3. عمر بن محمد النسفي: العقائد بشرح التفتزاني، 1335هـ.
4. النجار عبد المجيد عمر: قضايا البيئة من المنظور إسلامي، مركز البحوث والدراسات، قطر، 1999.